مَبْنَى البُطونِ القُرْآنيَّةِ وَأثَرُهُ في التَّفْسِيرِ

م.م. رجاء فرج السليمان
جامعة المصطفى العالمية- قم

فحوى البحث

بطون الالفاظ حقيقتها الاستعمالية المخصوصة وليس تأويلها لان الحقيقة القرآنية مطلقة واضحة والتأويل مقيد بإرادة وميل معين بالباطن هو الجوهر المطلوب من الألفاظ والارادة الإلهية فلا يعلم تأويله الا الله سبحانه فيعطي الحكمة ويهبها لمن يشاء من عباده، أما الراسخون في حكمة الله فيأمنون به ويعملون عليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن الكريم رسالة من الله، وجوهرة نفيسة مَنَّ الله بها على عباده، ومنهل للعلوم الإسلامية، فهو نور الله في الأرض وحبله المتين. وإنّ إلقاء نظرة على القرآن الكريم، تدفع أي إنسان واعٍ لأن يجتهد من أجل فهم معانيه، ومفاهيمه التي تجري كما يجري الليل والنهار والخطوة الأولى للولوج في معرفة هذا الكتاب العظيم وهو اللجوء الى كلماته النورانية.

في هذا البحث حاولت أن أبيّن معنى باطن القرآن الكريم وكيف يصبح مبنى ويؤثر في عملية التفسير، وتطرقت إلى الأدلة القرآنية التي تثبت باطن القرآن الكريم، مع مناقشة هذه الأدلة التي ذكرها المفسرون، كما عرضت الدليل الروائي بين المدرستين والتمييز بين كلا الرأيين وتطرقت الى النظريات التي ذكرها العلماء والمفسرون حول الباطن.

إشكالية البحث:

يتصدى هذا البحث: في بيان مبنى البطون القرآنية وأثره في عملية التفسير فكان السؤال الرئيس.

١. كيف تكون البطون القرآنية مبنى ولها التأثير الفعال في تفسير القرآن الكريم.
٢. ما هو الدليل الشرعي على وجود بطون للآيات الشريفة.
٣. ما هو الدليل العقلي على وجود بطون للآيات الشريفة.
٤. ما هي النظريات التي طُرحت في البطون القرآنية.
٥. هل بإمكان غير المعصوم عليه السلام فهم البطون القرآنية.
٦. ما هي طرق الحصول على بطون الآيات الشريفة.

المنهج المتبع: الوصفي التحليلي.

الكلمات المفتاحية: المبنى -البطن القرآني أو الباطن التأويل -التفسير.

الفصل الأول:

مباحث تمهيدية -المبحث الأول:

١. المبنى في اللغة: هو اسم مكان للبناء، ولها جذر وأصل لغوي واحد، فالباء والنون والياء أصل واحد، وهو بناء الشيء بضم بعضه الى بعض: تقول بنيت البناء أبنيه وتسمى مكة

البينة)[1]..

المباني في الاصطلاح:

١. عُرّفت بالمبادئ التصورية والتصديقية للتفسير والتي لا بد للمفسر أن يطّلع عليها ويختار المبنى الموافق لرأيه قبل الشروع بعملية التفسير)[2].

٢. وعرّفت بأنها عبارة عن مجموعة من الأمور التي يتخذها المفسر أساساً في عملية التفسير ويبني بحثه التفسيري عليها ويمكن أن تختلف عن مباني مفسر آخر باختلاف الآراء والأفكار مثل: دائرة حجية خبر الواحد في التفسير ودائرة حجية قول الصحابي والتابعي[3].

٣. وتم تعريفها على أنها القضايا الخبرية الحاكية عن واقعيات مؤثرة على مسيرة عملية التفسير والفهم القرآني بنحو ما، وتعتبر هي الأسس أو البناءات التي لا يتجاوزها المفسر وهي من مقدمات علم التفسير وتحدد قبل شروع المفسر في عملية التفسير، وقد تؤخذ من العلوم الإنسانية الأخرى[4].

المباني في الاستعمال القرآني:

١. قال تعالى ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ ﴾. وقوله تعالى ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴾ [سورة ص: ٣٧].

٢. البطن أو باطن الشيء لغة: (البطن في كل شيء خلاف الظهر، كبطن الأرض وظهرها وكالباطن والظاهر وكالبطانة والظهارة، يعني باطن الثوب وظاهره... وبطانه الرجل وليجته من القوم الذين يداخلهم ويداخلونه في دخله أمرهم[5].

والبطن من كل شيء هو جوفه ويقال لكل غامض بطن ولكل ظاهر ظهر)[6]..

البطن في الاصطلاح:

١. المقصود من البطن هو أن ما ورد في القرآن حول الأقوام والأمم من القصص، وما أصابهم من النعم والنقم لا ينحصر على أولئك الأقوام بل هؤلاء مظاهر لكلامه سبحانه، وهو يضم غيرهم ممن يأتون في الأجيال)[7].

٢. المراد من بطن القرآن هو الاهتداء إلى المصاديق الخفية التي يحتاج الوصول إليها للتدبر)[٨].

٣. وعُرّف بأنه مفهوم عام منتزع من فحوى الآية الواردة بشأن خاص حيث العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المورد وهذا أحد معاني التأويل)[٩].

ولا بد من بيان معنى التأويل حيث يستعمل في معنيين (فمرة يأتي بتوجيه الآية إلى الوجهة التي يرتضيها العقل والشرع كما في الآيات المتشابهة ومرة يأتي لتبيين معنى مستتر وخابئ وراء الألفاظ التي تبدو خاصاً حسب التنزيل وبهذا فإن أغلب الآيات النازلة حسب المناسبات تبدو خاصة وهذا ما يجعل رسالة القرآن عقيمة)[١٠]. إلا أننا نجد أن السنة النبوية أكدت على ضرورة إجلاء وجه الآية ليتضح المراد منها حيث قال الرسول ﷺ (ما من آية في القرآن إلا ولها ظهر وبطن وفسر الإمام الباقر عليه السلام الحديث فقال ظهره تنزيله وبطنه تأويله منه ما مضى ومنه ما لم يكن يجري كما تجري الشمس والقمر)[١١]..

وهذا يبين أنه كلما تدبر الإنسان وتعمق في فهم الآيات فإنه سيجد الآية ذات مفهوم واسع.

الاستعمال القرآني لمفردة البطن:

استعملت مفردة البطن خمساً وعشرين مرة في القرآن الكريم بموارد متعددة نذكر بعضاً منها:

١. وردت في سورة النور بمعنى العضو الخاص في البدن قال تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[سورة النور: ٤٥].

٢. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾[سورة آل عمران: ٣٥].

٣. واستعملت بمعنى الذنوب المستورة قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[سورة الأعراف: ٣٣].

٤. واستعملت في مورد واحد في صفة الله

عز وجل قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة الحديد: ٣].

التفسير لغة: كشف المغطى، والتفسير كشف المراد من اللفظ المشكل)[١٢]. قال الراغب: الفَسْر والسَفْر متقاربان كتقارب لفظيهما لكن جُعل الفَسْر لإظهار المعنى المعقول، والسَفْر لإبراز الأعيان للأبصار يُقال سَفَرت المرأة عن وجهها وأسفرت، وأسفر الصبح)[١٣]..

التفسير في الاصطلاحات:

١. (هو بيان معاني الآيات القرآنية والكشف عن مقاصدها ومداليلها)[١٤].

٢. التفسير هو علم يفهم به كتاب الله المنزل على محمدﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه واستمد ذلك من علم اللغة والنحو وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات)[١٥].

٣. هو علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمُل عليها أصالة التركيب)[١٦]..

الاستعمال القرآني لكلمة التفسير:

استعمل القرآن الكريم كلمة التفسير مرة واحدة في سورة الفرقان قال تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴾[سورة الفرقان: ٣٣].

المبحث الثاني:

١. نبذة تاريخية:

يرجع تاريخ التفسير الباطني إلى صدر الإسلام إذ توجد روايات مأثورة عن النبيﷺ تشير إلى هذه الطريقة في التفسير وتعرف بروايات بطون القرآن الكريم، وفي خلال هذه الروايات أصبح الطريق مفتوحاً وموضع قبول من قبل المسلمين من منطلق أن القرآن له باطن عميق ومعان دقيقة.

وإن (دخول التراث الفلسفي اليوناني والشرقي إلى البيئة المعرفية الاسلامية بفعل الترجمات التي حصلت لهذه الآثار إلى اللغة العربية منذ بداية القرن الثاني الهجري ممّا أدى إلى ظهور توجهات تفسيرية تُعنى بالجانب التأويلي والباطني للآيات القرآنية)[١٧].

(وقد اعتنى بعض العرفاء والمتصوفة

ببعض الأنواع من التفسير الإشاري مثل التفسير الرمزي والشهودي والصوفي والعرفاني ودونوا كتباً متعددة في هذا المجال وسلك كل واحد منهم طريقاً خاصاً في تطبيق هذا المنهج فوقع بعضهم في محذور التفسير بالرأي وبعضهم أعلا المعايير الصحية في اكتشاف البطون القرآنية)[١٨].

أهمية باطن القرآن: تنبع أهمية الباطن القرآني من خلال أنه يؤمن الحضور الدائم للقرآن ويعتبر سر خلوده فعندما وصفه الرسول ﷺ بأن ظاهره أنيق وباطنه عميق[١٩]. فإن ذلك يبين أن كل جيل لا يقف الا على بُعدٍ من أبعاد كتاب الله ولا تنال كل فئة إلا معنى من معانيه وهكذا يبقى غضاً طرياً على مر الزمان (وباطن القرآن الكريم بالنسبة الى ظاهر بمنزلة الروح الى الجسد حيث تُبَثُ فيه روح الحياة في الجسد ويمر الباطن القرآني عبر ظاهره لا بإلغائه)[٢٠].

٢. كيف تكون البطون القرآنية مبنى:

لا يمكن الشروع في تدوين أي نوع من التفسير إلا بعد تعيين المباني التي يعتمد عليها المفسر، ولا نستطيع الحصول على تفسير من دون مبانٍ وإن رفع اليد عن المباني يمثل خللاً في التفسير وابتعاداً عن الصواب.

والباطن القرآني يكون مبني من خلال عدة أمور:

أولاً: إن لمعاني الألفاظ القرآنية مراتب تُفهم حسب مستوى الادراك العقلي للانسان وكلما ارتفع مستوى الادراك العقلي استطاع العقل الانساني أن يرى مرتبة من مراتب المعنى أرقى وأرفع)[٢١].

ثانياً: إن القرآن ما يزال يقرأ عبر العصور وما يزال غضاً طرياً وكلما قرأه المفسرون والعلماء كلما ازدادوا منه علماً ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة الا بفرض بطون له قادرة على حمل هذا المعنى وهذا ما يعبر عنه بديمومة الاستنباط من القرآن الكريم.

ثالثاً: الروايات الكثيرة عند الفريقين حول الباطن القرآني وان للقرآن مستويات ودرجات في الظهور والعلم وكل يستقي بقدر إنائه وفهم البطون وإن كان في طول وتحت فهم وتفسير الظاهر من القرآن لكنه

ذو نكات متطورة ومتعددة كانتزاع العبر والمواعظ والحكم وهذا ما يجعله مبنى يؤثر في عملية القرآن.

رابعاً: بما أن القرآن كتاب هداية وهو عام وشامل فإنه يهتم باصلاح المجتمع البشري وذلك في خلال الفاظه إلا أن هذه الألفاظ تختزن في باطنها معانٍ تصلح لكل من ينهل من معينه الصافي.

خامساً: اذا لم يعتمد على مقدمات علمية في تفسير باطن القرآن فسوف يكون عبارة عن تحميل للقرآن بما يناسب مقاصد مذهبية مثلاً أو يعتمد على توجيهات وآراء فردية من دون الاستفـــادة من القرائن العقلية والنقلية فسوف يكون نوعاً من أنواع التفسير بالرأي.

سادساً: يكون باطن القرآن مبنى إذا استطعنا اثبات أن للقرآن بطن من خلال الدليل الشرعي والعقلي واثبـات حجيته وهذا ما يتكفل به الفصل الثاني.

٣. هل مبنى باطن القرآن الكريم منهج أم اسلوب؟؟.

يُعدّ مبنى باطن القرآن الكريم من المباني الصدورية وهو منهـج وذلك أنه عندمـا نرجع الى تعريف المنهج نجده عبارة عن (كيفية كشف واستخراج معاني ومقاصد آيات القرآن الكريم)[٢٢] ولكن اذا أُدرج بأنه «نوع من التفسير الاشاري فسوف نقول انه أسلوب»[٢٣] وتستخدم البطون القرآنية كقاعدة من القواعد التي تُعرّف بأنها (عبارة عن حكم كلي ينطبق على الجزئيات)[٢٤] فعندما نستعمل نفس البطن في الاستنباط يكون قاعدة تفسيرية حيث تدخل البطون القرآنية في قاعدة الجري والإنطباق وصورتها: (هو العناية بإمكان الوصول إلى ما خفي من المعاني أو ما خفي من المصاديق بعد التوجه إلى المعاني الظاهرة الحاصلة من الألفاظ ومن ثم بيان مشروعية بعض التأويلات ورفض بعضها الآخر)[٢٥].

الفصـــــل الثاني:

المبحث الأول:

١. الباطن القرآني من منظار الفريقين:

رأي الشيعة:

صرحت بعض النصوص الروائيـــة الشيعية بتفسيرها لمصطلح الباطن، وذكر بعضهـــا الآخر كمصداق يبين المعنى

الباطني للآية من تلك الروايات، ما روي عن رسول الله ﷺ (ما في القرآن آية الا ولها ظهرو بطن فظاهره حُكم وباطنه علم ظاهره أنيق وباطنه عميق)[٢٦].

أمـــا عن تعيين المصـــداق للمعنى الباطني فيكون:

أ. التأويل بالتعميم على الموارد المتشابهة، بعد تجريـــد خصوصيـــات النزول وكشف مناط الحكـــم كما في قوله تعـــالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ ﴾[سورة الجمعة: ٥].

وفي هذه الآية الخطاب موجه لعلماء اليهود مباشرة ولكنه طُبق على المسلمين الذين تصرفوا تجاه القرآن الكريم تصرفاً متشابهاً[٢٧].

ب. (تأويـــل من سنخ الوجود الذي لم يتحقق عند تنزيل الآية)[٢٨] حيث يمثل مضافاً: في ظاهر الآية مراد الله عز وجل ومثاله قوله تعالى﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ﴾ [سورة الملك: ٣٠].

فظاهر الآية أن نعمة الوجود وسائل العيش كلها تحت إرادة الله عز وجل ووفق تدبيره الشامل، والإمام الكاظم عليه السلام مبين مراد الله عز وجل فيقول الماء المعين هو علم الإمـــام جـ(المعاني المستورة ذات المراتب التي هي من سنخ المعنى) [٢٩] ومثال ذلك قوله تعالى ﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[سورة القصص: ٥٠].

فسر الإمام الكاظـــم (بغير هدى) بالإمام الحق المنصوب من الله.

وعلى هذا نستطيع أن نصل إلى أن بطن الآيات الشريفة أوسع من التأويل.

رأي اهل السنة:

ورد في روايات أهل السنة عن بطن القرآن الكريم ما يلي عن ابن عباس يقول ضمن أحد الأحـــاديث (إن القرآن ذو شجون وفنون... وظهر وبطن فظهره، التلاوة، وبطنه التأويل)[٣٠]..

ولم تنقل النصوص الروائية شرحاً توضيحياً عن الرســـول ﷺ فالذي هو موجود آراء العلماء في شرح الاحاديث الواردة في هذا المجال وما يلاحظ فيها هو

التفاوت في الآراء حيث نجد النيسابوري يقول: (فالظاهر ما يعرفه العلماء والباطن ما يخفى عليهم فنقول في ذلك كما أمرنا ونوكل علمه إلى الله تعالى)[٣١].

ورأى الشاطبي ان المراد بالظاهر هو المفهوم العربي وبالباطن مراد الله.

وتحدث بعض أهل السنة عن الاختلاف في الآراء مثل البغوي الذي يرى أن ظاهره تنزيله الذي يجب الإيمان به وباطنه وجوب العمل به، وما من آية إلا توجب الأمرين معاً[٣٢]..

فيمكن تلخيص رأي أهل السنة بإمكانية فهم بطون الآيات من قبل الجمع بعد إحراز الشروط اللازمة.

بعد هذا العرض نستطيع القول إن المشتركات بين الفريقين هي:

أ. وجود البطون لجميع الآيات الشريفة.

ب. وردت كلمة البطن بمعنى التأويل وقبول الفريقين، وإن كان الباطن في الروايات الشيعية أعم من التأويل.

المبحث الثاني:

٢. الدليل الشرعي على وجود باطن القرآن:

يقسم الدليل الشرعي الى دليل قرآني ودليل روائي:

أ. الدليل القرآني:

١. ذكر بعض من كلا الفريقين لإثبات وجود البطون القرآنية آيات شريفة مثل ﴿وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾[سورة الانعام: ١٥٤].

وقوله تعالى ﴿مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾[سورة الانعام: ٣٨].

وعبارة كل شيء إن كانت تدل على الشمول الظاهري فالواضح أنه ليس بإمكان كل الناس أن يستنبطوا كل شئ من ظواهر القرآن فلازم ذلك أن يكون هناك معانٍ موجودة تحت ستار الألفاظ القرآنية، وحتى لو تم تقيد هذه العبارة بقيد مثل كل شيء ذو علاقة بالمبدأ فأيضاً ليس كل الأشخاص قادرون على استفادة كل الأمور من ظواهر الألفاظ القرآنية ولا سبيل إلا الاقرار بوجود الباطن القرآني

أُشكل على هذا الرأي بأن سياق الآية في قوله تعالى ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ إنما هي حاكية عند التوراة

وأنه يمكن أن يكون المقصود من مفردة الكتاب وما فرطنا في الكتاب من شيء اللوح المحفوظ والعلم الإلهي)[٣٣].

٢. الآيات التي تدعو إلى التفكّر والتدبّر:

استدل القائلون أن في القرآن معان وحقائق لا تدرك بالنظرة الأولى بل لابد من التعمق والتأمل ومنها:

قوله تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[سورة محمد: ٢٤] وقوله تعالى ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة النحل: ٤٤].

وقوله تعالى: ﴿ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[سورة النساء: ٧٨] فهذه الآيات تصف الكافرين بأنهم لايكادون يفقهون حديثاً، لايريد بذلك انهم لايفهمون نفس الكلام لأن القوم كانوا عرباً، والقرآن لم يخرج عن لغتهم فهم يفهمون ظاهره بلاشك، وإنما أراد بذلك أنهم لايفهمون مراده من الخطاب فخصهم على أن يتدبروا في آياته حتى يقعوا على مقصوده، وذلك هو الباطن الذي جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم.

وما يلاحظ أن الاستدلال بهذه الآيات فيها ضعف فإنها تدعو الى التدبر في نفس المفاهيم المستفادة من ظاهر الآيات وكون القرآن عربياً وكون القوم عرباً لايكفي في فهم القرآن الكريم من دون التدبر فهل يكفي كون القوم عرباً في فهم معنى قوله سبحانه وتعالى ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [سورة الحديد: ٣] أو في فهم قوله تعالى ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.

فالدعوة الى التدبر لاتدل على أن للقرآن وراء ما تفيده ظواهره بطناً.

«وثانياً يمكن أن يكون الامر بالتدبر هو تطبيق العمل على ما يفهمونه فربَّ ناصح يدلي بكلامه فيه نصيحة الأهل والولد ولكنهم اذا لم يطبقوا عملهم على قوله يعود الناصح اليهم ويقول لماذا لاتتدبرون في كلامي»[٣٤].

٣. الاعتبار بالقصص القرآني:

قال تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[سورة يوسف: ١١١] الله سبحانه وتعالى في هذه الآية

يدعو إلى الاعتبار من القصص القرآني ويرى بعض المفسرين إنها واردة في عنوان الدليل على وجود البطون في القرآن الكريم (فالهدف والمقصود أن يفهم معناها كل مخاطب فإن كانت مقيدة بالظرف الزماني او المكاني او بشخصيات تاريخية لأصبحت قصصاً تاريخية لا علاقة لها بالأجيال اللاحقة)[٣٥]..

في حين أن القرآن كتاب هداية لجميع الأجيال فلا بد من أن يستفيد منها جميع الأجيال وتنطبق على مصاديق كل زمان وهذا أحد معاني البطون القرآنية.

ب. الدليل الروائي:

توجد روايات صحيحة تدل على وجود بطون للآيات القرآنية موجودة في كتب الشيعة والسنة.

فعن الإمام الباقر عليه السلام (إن للقرآن بطناً وللبطن بطناً، وله ظهرو للظهر ظهراً)[٣٦]..

وفي حديث له عليه السلام (ما نزل من القرآن من آية الا ولها ظهر وبطن ظهره تنزيله، وبطنه تأويله).

وفي حديث عن ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وآله (أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن وتوجد روايات متعددة حيث عقد (المجلسي) باباً مفصلاً في خصوص روايات بطن القرآن وكذلك السيوطي في كتابه الاتقان.

المبحث الثالث:

٣. الدليل العقلي على وجود باطن القرآن:

بعد أن ذكرت الأدلة القرآنية والروائية التي تُعد أدلة ارشادية لحكم العقل نجد أنه يوجد أدلة عقلية نستند عليها في بيان باطن القرآن الكريم.

١. إن القرآن الكريم يعدّ كتاب هداية للناس يبين لهم المعارف التي تسهم في التأثير بسعادتهم لكن هذه المعارف ليست ميسرة في الفاظ القرآن الكريم فقد تم بيان قسم منها عن طريق الاستفادة من المعاني الباطنية.

٢. إن القرآن الكريم ما يزال يُقرَأ عبر العصور وهو غض طري تنهل منه كل الأجيال ولا يوجد كتاب فيه هذه الخاصية فلا بد من أن تفسير هذه الظاهرة بالاستناد على فرض بطون قادرة على حمل المعنى المستديم.

٣. «إن القرآن الكريم فيه المجاز والاستعارة والتمثيل والقصص وغير ذلك من فنون البلاغة وهذا البناء اللغوي يفتح النص القرآني على دلالات ومبانٍ مستمرة عبر الزمن تتبع تطور الوعي الانساني»[٣٧]..

٤. القرآن الكريم كتاب إعجازي، ومن وجوه اعجازه أنه يحتوي علوماً كثير استنبطت في نصوص مختصرة ويتم ذلك من خلال فرض بطون لهذه النصوص إلا أنه في مناقشة هذا الدليل نجد أن الاعجاز اللفظي لا يساوي بالضرورة كثرة المعاني حتى يفرض للنص ظاهر وباطن فضلاً عن انه توجد آراء ترى بأن الإعجاز القرآني ليس فقط لفظياً.

المبحث الرابع:
نظريات العلماء حول بطون القرآن الكريم:

١. نظرية البطون التأويلية: مضمون هذه النظرية أن المراد من البطون يمكن أن يكون المصاديق المتعددة للفظ الواحد بحيث يكون وضوح انتساب بعض المصاديق الى اللفظ أشد من سائرها ولأجل هذا يصح إطلاق الظاهر والباطن عليه تبعاً لدرجة الظهور والخفاء في الالتحاق بالعنوان الكلي الموجود في اللفظ ومن هنا قد لا يفهم البطون كلها إلا الأنبياء والاوصياء لان عقولهم تستطيع الانتباه الى المصاديق الخفية والا فالمعنى واحد من اللفظ[٣٨]..

٢. فرضية المعنى المتناسب مع مستوى العقل الإنساني:

«وفيها ان معنى الألفاظ القرآنية مراتب تفهم بحسب مستوى الادراك العقلي للإنسان فكلما ارتفع مستوى الادراك العقلي للإنسان استطاع العقل ان يرى مرتبة من مراتب المعنى ارقى وأرفع»[٣٩]..

٣. نظرية العلامية والاشارية في الدلالات الباطنية:

وذكر بعض العلماء احتمال في تفسير البطن القرآني وهو أن يكون المراد أن اللفظ مستعمل في معناه بطريقة طبيعية كسائر الاستخدامات العقلانية لكن في

الوقت الذي يستعمل فيه في معنى معين لا تعدد فيه ولا بطنية ولا ظهرية له الا ان يكون اللفظ كله بنفسه علاقة ورمز وإشارة لشيء آخر.

وتنسجم هذه النظريـــة مع الاتجاه الصوفي حيث يميل العديد من أصحابها الى استشعار معنى في الذهن حال قراءة الآيات وينسب هذا المعنى للباطن القرآني كأن يقرأ قصـة موسى وفرعون على أنه القلب الطاغي ويبدأ بتصـــور أحداث القصة[٤٠]..

٤. نظرية البطون القرآنية وثنائية الأخبار والالفاظ:

يرى أصحاب هذه النظرية أن الظاهر هو القصص الواردة في أخبـــار هلاك الأولين والأمم السابقة فالجانب الاخباري هو الظاهر من الآيات فيما الجانب الوعظي هو الباطن القرآني وهذه النظرية اشار اليها ابي جعفر الطوسي[٤١].

٥. نظرية الإجمـــال في تفسير البطون القرآنية.

ذهب الى هذه النظرية السيد أبو الحسن الإصفهاني إذ يرى وجود التشابه والاجمال في تفسير معنى الظاهر والباطن الوارد في النصوص القرآنية وأنه من الصعب حسم الموقف لصالح واحد من هذه الاحتمالات مما يؤدي الى الإجمال[٤٢].

٦. نظريـــة البطون الوجودية (القراءة العرفانية).

يعتقد العرفاء بفكرة الظاهر والباطن على اساس انه(باطن كل شيء هو حقيقته فالباطن ليس باطنا دلالياً حتى يُعبر اليه عبر الالفـــاظ وإنما هو باطن وجودي والقرآن له حقيقة مجردة متعالية ترجع الى الذات الالهية وتنزلها في عالم الوجود وعندما يبلغ هذا الكتاب العالم المادي يظهر على شكل مصحف، فالظاهر شكل من أشكال الباطن ومظهر من مظاهره فلا معنى لترك الظاهر لصالح الباطن ولا لترك الباطن لصالح الظاهر لأنهما وجهان لعملة واحدة»[٤٣].

بعد عرض النظريـات نستطيع أن نجمل القـــول بأن هناك جامع مشترك تستدعيه طبيعة البـــاطن القرآني حيث توجد في القرآن دلالات واضحـة بينة يفهمها الانسان عند قراءة الآيات القرآنية،

و(توجد بعض المعاني القرآنية غير ظاهرة تحتاج إلى مقاربة ومقارنة وتحليل للكشف عن الباطن وهذا ما يسميه السيد الصدر (بالظهور المعقد مقابل الظهور البسيط)[٤٤]..

المبحث الخامس:
إمكان فهم الباطن القرآني لغير المعصوم:

بعض عرض الأدلة القرآنية والروايات الشريفة التي تشير الى أن بطن القرآن هو تدبره وأن البطن هو المعاني العميقة له وعرض النظريات نجد أن مسألة فهم بطون القرآن لغير المعصوم مسألة فيها خلاف فعلى نظرية العلامة الطباطبائي والشيخ معرفة والشيخ مكارم الشيرازي تكون النتيجة هي امكان فهم البطون للعلماء وأما بحسب نظرية الإمام الخميني التي يعتقد بها رضوان الله عليه (أن البطن الحقيقي عند الله عز وجل وباستثناء المعصومين وبتوجيههم يمكن فهم هذا الباطن ومن خلال المكاشفة التامة الالهية أي الرجوع من الشهادة المطلقة الى الغيب المطلق بالسير صعوداً يفهم باطن ومراد الله عز وجل من القرآن)[٤٥]..

ان القول بإمكان فهم الباطن القرآني لغير المعصوم عليه السلام لا يعني أنه بإمكان كل إنسان تحصيله فكل شخص بمقدار فهمه وسعيه يحصل على مرتبة من هذه المراتب العظيمة ولا يمكن للأفكار السقيمة أن تخلق قلوباً طاهرة تصل إلى هذا المستوى فالله عز وجل يقول ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾[سورة الأعراف: ٥٨]..

المبحث السادس:
طرق الحصول على باطن الآيات الشريفة:

١. إن إحدى طرق تحصيل البطون الشريفة يتم من خلال تفسير القرآن بالقرآن وهذا ما نستفيده من السيد محمد حسين الطباطبائي حيث يرى أنه لابد من الالتفات الى القرائن الموجودة في الآيات الأخرى والتدبر في الآيات»[٤٦].

٢. البحث عن هدف الآية.

٣. الموازنة بين الهدف وخصوصيات الآية.

٤. تحديد ما له علاقـــــة بالهدف من الخصوصيات وإقصاء ماليس له علاقة.
٥. استخراج مفهوم كلي من الآية ينسجم مع الهدف.
٦. تطبيق الآية على الموارد المشابهة على اختلاف الزمان والمكان[٤٧].
٧. أن يكون للبطن شاهد من الكتاب ذاته[٤٨].

ويذكر الشيخ معرفةً مثالاً توضيحاً من خلال بيان اسباب النزول لآية السؤال من أهل الذكر قال تعالى ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[سورة النحل: ٤٣] أنه سبب نزولها بشأن ازاحة علة المشركين بتشكيكهم أن يكون الرسول من البشر ولكن يُوضَح بأن فحواها العام هي «آية تعم كل جاهل بأصول الدين أو فروعها فعليه أن يراجـــع العلماء والآية رسالة خالدة فهي مستند عقلي وحياتي يحتج بها العلماء وفي كافة الأعصار على ضرورة رجوع العامة إلى ذوي الاختصـــاص في جميع المعارف)[٤٩].

الخاتمـــــــة:

بعـــد البحث والتنقيب في المصادر والمراجع تم التوصل إلى:

أولاً: إثبات أن البطـــون القرآنيـــة للآيات الشريفة مبنى يسهم في الاستفادة من كلام الله عز وجل وتفسيره وذلك من خـــلال طرح الأدلة الشرعيـــة المتمثلة بالآيات القرآنيـــة والأحاديث الشريفة وبيان الأدلة العقلية التي تثبت أن هذه البطون على صلة بالظواهر وتخدم القرآن في شموليته وسعته وبقاء حيويته.

ثانيـــــاً: تم عرض النظريات التي تحدثت عن الباطن في القرآن التي تشترك في أن هذا الباطن القرآني يحتاج الى مقارنة وتحليل للكشف الدائم عن معانٍ متجددة ومفاهيم تناسب كل عصر.

ثالثـــاً: إن الباطن القرآني اذا لم تراع فيه الضوابط المعتبرة او القرائن المستفادة من الدليل النقلي او العقلي فهذا يؤدي الى التفسير بالرأي وهو منهي عنه.

رابعـــــــاً: هناك مراحل متعددة للحصول على بطون الآيات الشريفة لابد من مراعاتها.

خامساً: تم استنتاج أن باطن القرآن دليله الشرعي يكمن في الروايات الشريفة

وبتوضيح معنى التأويل تبين أن أحد معانيه يعد دليلاً على الباطن في القرآن.

* * *

الهوامش:

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ماد: بني.
(٢) أصول وقواعد التفسير، محمد علي الأصفهاني، ص٢٢.
(٣) أساسيات علم التفسير، مركز نون للتأليف والتحقيق ص٧١.
(٤) تمهيد لمباني التفسير التربوي، مقالة علمية: /COUTEUT:/ / DOWNLOADS
(٥) العين، الفراهيدي ٧/ ٤٤٠.
(٦) لسان العرب، ابن منظور، مادة: ظهر.
(٧) المناهج التفسيرية، جعفر السبحاني، ص١٣٣.
(٨) المصدر نفسه ص١٣٣.
(٩) التفسير الأثري الجامع، محمد هادي معرفة ج١ ص٣٠.
(١٠) انظر التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، محمد هادي معرفة ص٢٤.
(١١) بصائر الدرجات الكبرى، الصفّار، ٧/ ٢١٦.
(١٢) ابن منظور، لسان العرب، ج٥ ص٥٠.
(١٣) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن مادة فسر.
(١٤) محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان ج١ ص١٤.
(١٥) بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن ص١٦.
(١٦) أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير ج١ ص٢٦.
(١٧) مناهج التفسير واتجاهاته، محمد علي الاصفهاني، ص٢٦١.
(١٨) الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي ج١ ص٧.
(١٩) أصول الكافي، ج٢ ص٥٩٩.
(٢٠) الشيعة في الاسلام، الطباطبائي ص٤٩.
(٢١) الحاشية على كفاية الأصول، البروجردي ج١: ١١٠.
(٢٢) مناهج التفسير واتجاهاته، جعفر السبحاني ص١٧.
(٢٣) راجع مناهج التفسير واتجاهاته، محمد علي الرضائي، ص٢٦١.
(٢٤) ثقافة المعارف الاسلامية، جعفر السبحاني ج٢: ١١٥٣.
(٢٥) قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة، محمد فاكر الميبدي ص٢٧٥.
(٢٦) الكافي، الكليني، ج٢ ص٥٩٩.
(٢٧) انظر التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، هادي معرفة ج١ ص٢٣.
(٢٨) مبادئ تفسير القرآن، فتح الله نجار زادكان ص١٠٠.
(٢٩) مبادئ تفسير القرآن، فتح الله نجار زادكان ص٩٨.
(٣٠) الدر المنثور، السيوطي، ص١٥٠.
(٣١) تفسير غرائب القرآن ورغائب العرفان ج١، ص١٢٦.
(٣٢) شرح السنة، البغوي ج١ ص٢٦٣.
(٣٣) منطق تفسير القرآن، محمد علي الأصفهاني، ص١٧٨.
(٣٤) المناهج التفسيرية، جعفر السبحاني

ص١٣٢.

(٣٥) منطق تفسير القرآن، محمد علي الاصفهاني ص١٧٧.

(٣٦) الكافي، الكليني، ج١، ص٣٧٤.

(٣٧) انظر نظرية البطون، حيدر حب الله (من الأنترنت).

(٣٨) نهاية النهاية، الايرواني ج١ ص٦٠.

(٣٩) انظر الحاشية على كفاية الأصول، البروجردي، ح١ ص١١٠.

(٤٠) تهذيب الأحول، عبد الأعلى السبزواري، ج١ ص٣٦.

(٤١) التبيان، الطوسي ج١ ص٩.

(٤٢) الوصول الى حقائق الاصول، الأصفهاني ص١٣٣.

(٤٣) انظر نظرية العرفاء احياء علوم الدين، الغزالي ج١ ص٣٥٨.

(٤٤) المدرسة القرآنية، الصدر، ص٢٩٢.

(٤٥) آداب الصلاة، الامام الخميني ص٢٦٨.

(٤٦) انظر القرآن في الاسلام، محمد حسين الطباطبائي ص٢٠.

(٤٧) راجع التفسير الأثري الجامع، محمد هادي معرفة ج١ ص٣٢.

(٤٨) الموافقات، الشاطبي ٣/ ٣٩٤.

(٤٩) التفسير الأثري الجامع، محمد هادي معرفة ح١ ص٣٣.

المصـــــــادر:

القرآن الكريم.

١. ابن فارس، أحمد، مقاييس اللغـــــة، الناشر: دار الجيل بيروت.

٢. ابن منظور، محمد بن مكرم، لســـان العرب، النـــاشر: دار صادر بيروت ط٤.

٣. الأندلسي، أثير الدين أبو حيان، البحر المحيط في التفسير، الناشر مؤسســة الرسالة العالمية.

٤. الإيرواني، ميرزا علي، نهاية النهاية في شرح الكفاية، دار الفكر ١٤١٢ هـ.

٥. الاصفهـــــاني، أبو الحسن، وسيلة الوصول الى حقائق الاصول (١٢٦٤-١٣٢٨).

٦. البروجردي، حسين، الحاشيـــة على كفاية الأصول، الناشر مكتبة مدرسة الفقاهة ١٣٨٣هـ.

٧. البستي، محمد بن حبان، صحيح ابن حبان، مؤسسة الرسالة بيروت ط٢، ١٩٩٣ م.

٨. البغوي، حسين بن مسعـود، شرح السنـــــة، المكتبـة الوقفيـة للكتب ت٥١٦.

٩. الخميني، روح الله، الأداب المعنوية للصلاة، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الامام الخميني طهران ٢٠٠٣.

١٠. الخميني، روح الله، شرح دعـــاء السحر، مؤسسـة تنظيم ونشر تراث الامام الخميني، طهران.

١١. الرضائي الأصفهاني، منطق تفسير القرآن، تعريب د. أحمـــد الأزرقي، هاشـــم أبو خمسين، مركز المصطفى العالمي.

١٢. الراغب الأصفهـــاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب الـــقرآن، المكتبة الشاملة.

١٣. زادكان، فتح الله نجار، مبادئ تفسير القرآن، ترجمة محمد حسين، الناشر: مركز الحضارة لتنمية الفكر.

١٤. الزركشي، بدر الدين، البرهـــان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، النـــاشر: دار احياء الكتب

العربية القاهرة.
١٥. السبحاني، جعفر، المناهج التفسيرية في علوم القرآن، مؤسسة الصادق ١٤٢٦ هـ.
١٦. السبزواري، عبد الأعلى الموسوي، تهذيب الأصول، شبكة الفكر.
١٧. السيوطي، جلال الدين (ت ٩١١هـ)، الدر المنثور، دار الفكر بيروت.
١٨. الصدر، محمد باقر، المدرسة القرآنية، الناشر دار الفكر.
١٩. الصفار، محمد بن حسن، بصائر الدرجات الكبرى، دار الفكر.
٢٠. الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان، مؤسسة الأعلمي بيروت ط ١٤٢٧هـ.
٢١. الطباطبائي، محمد حسين، الشيعة في الاسلام، بيت الكتاب مركز بقية الله الأعظم بيروت ١٩٩٩.
٢٢. الطباطبائي، محمد حسين، القرآن في الاسلام، تعريب أحمد الحسيني الناشر: تبليغات اسلامي ١٤٠٤ هـ.
٢٣. الطوسي جعفر بن محمد، التبيان في تفسير القرآن، الناشر: دار مؤسسة الميلاني لإحياء الفكر الشيعي.
٢٤. الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، دار المعرفة بيروت، ٢٠١٠.
٢٥. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، تحقيق د مهدي المخزومي، د. ابراهيم السامرائي، الناشر: دار مكتبة الهلال.
٢٦. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، تحقيق على أكبر الغفاري الناشر: دار الكتب الاسلامية طهران ط٥، ١٣٦٣ هـ.
٢٧. معرفة، محمد هادي، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب الناشر: الجامعة الرضوية للعلوم الاسلامية، مشهد.
٢٨. معرفة، محمد هادي، التفسير الأثري الجامع، الناشر مطبعة ذوي القربى، قم المقدسة.
٢٩. المبيدي، محمد فاكر، قواعد التفسير لدى الشيعة والسنة الناشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب، طهران.
٣٠. النيسابوري، الحسن بن محمد القمي،

غرائب القرآن ورغائب العرفان، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٦ هـ.

المقالات:

١. نظرية البطون وبنية الخطاب القرآني ـ حيدر حب الله hobbollan. com.

٢. التمهيد لمباني التفسير التربوي، شبكة الامامين الحسنين عليهما السلام للتراث والفكر الإسلامي.

٣. ثقافة المعارف الاسلامية سيد جعفر سجادي.